كله فقد بقي الفن فنا ولم يتحول إلى أي شيء آخر . وكما أن علم الطبيعة توصل إلى اكتشافات هامة في أحيان كثيرة ،كان يرتدي فيها لبوس العلوم الروحانية ، فان الفن توصل إلى اكتشافاته (ولو بأشكال ترمز إلى المعتقدات الدينية) بما يتلاءم مع جوهره الداخلي متعرفا جمالياً على الحياة الانسانية الواقعية .

٤ــ من غير الممكن ان ننكر العلاقة الفكرية الوثيقة بين الفن والدين ، بل من الأدق أن أن نقول بين الكنيسة وفن العصر الاقطاعي . ولكن يجب أن نفهم ، إلى جانب ذلك ، الأسباب التاريخية الشاملة التي تجمع مختلف أشكال الوعي في العصر المعني .

ان الانسان الذي يقف في أسفل سلم المجتمع الاقطاعي يستغل بقسوة كما يستغل العبد تقريباً برغم أنه يمتلك استثماراته . له ملكيته . انه يملك نفسه ولا يملكها . ووجود هـذا الانسان كله تناقض تراجيدي ، انه انسان ولكنه انسان مهان دائماً والحواجز الطبقية لاتبقي له املا بالخروج من هذه الحالة .

ان الطبقة السائدة في المجتمع القديم لم تكن تحسب للعبيد أي حساب . وفيه كان الدين والفن وقفا على مالكي العبيد وحدهم . أما في المجتمع الاقطاعي فتنشأ الحاجة إلى ايديولوجية تقدس الأوضاع الراهنة للأشياء وتكون موجهة في الوقت نفسه إلى الطبقـات الدنيا .

صحيح ان المسيحية انتشرت في ظل النظام العبودي ، الا أنها كانت علامة أزمـة ذلك النظام والمبشر الفكري بانهياره . ولكن الكنيسة جمعت في النظام الاقطاعي بين فكـرة خضوع الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا (١) وبين فكرة المساواة المطلقة ــ المساواة في في الآلام والآثام والموت ومملكة الرب . وهكذا فان الكنيسة في العصور الوسطى خدمت الطبقات المسيطرة وتركت في الوقت نفسه مخرجاً لمشاعر المضطهدين مصورة لهم آلامهم وحرماناتهم شيئاً مقدساً يقربهم من الرب . ان فكرة المساواة بين الناس غريبة تماما عن آراء المجتمع العبودي ولكن الكنيسة استخدمت تلك الفكرة استخداماً صوفيا مشوها .

٥ــ اتخذت الحركات الشعبية في القرون الوسطى اشكال طوائف وفرق تسعى إلى نقل مفاهيم المساواة المثالية إلى مجال العلاقات الانسانية الأرضية . واستند الواعظون الثوريون الفلاحيون إلى النص المقدس ، (أنتم مشترون بثمن غال فلا تكونوا عبيداً للناس) .

---

(١) : لتطع كل نفس السلطات العليا : لأنه لاوجود لسلطة الا من عند الرب » هذا ماجاء في وصية القديس بولص) .